الإعلام السلطوي والوجه الآخر للسقوط

يظل الرهان على الإعلام التجاري، كمن يراهن على صاحب "سوبر ماركت" أن يبيع بضاعته بالمجان. فالإعلام التجاري أو الحر كما يحلو لك أن تسميه، ما هو إلا وجه مماثل للشركات والمؤسسات الربحية، التي لا يعنيها سوى الربح، بأي ثمن وبأي بضاعة مباعة، طالما أن السوق يستوعب تلك البضائع الرخيصة أو الثمينة المهم فى النهاية ما يحققه صاحب قناة الاتصال من ربح مادي مباشر أو غير مباشر، كربح سياسي يتحول بفعل التراكب على ظهر السلطة إلى ربح مادي، ولا لوم على هذه القنوات، طالما أن هذه طبيعة عملها، فمن الجنون أن تطالب صاحب "مرقص" أن يقدم اللبن والسواك لرواد المرقص، ولطالما أيضا أنه لا يوجد فى عالمنا المصري والعربي محض منمنمات أخلاقية فى شكل ميثاق شرف إعلامي، يوازيه مجموعة قوانين فاعلة، لمن يتعدى تلك الحدود المتعارف عليها فى العالم بأسرة. وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن جميع هذه المحطات رأس ماليه طفيلية. لكن أيضا لا يمكن أن تقنع عاقلا أو مجنونا أن الرأسمالية الوطنية العاملة فى هذا المجال، تسعى لوجه الله ثم الوطن. فكل الرأسماليات تسعى إلى الربح، لكن الفارق بين الطفيلي والوطني، ما هو إلا تحري الحلال والحرام. الغث والثمين. الصادق والكاذب، ورغم ذلك فالمعيارية هي الربحية حتى وإن كانت المحطة رأسمالية وطنية بالدرجة الأولى. لذا كان الرهان فى تجاوز أزماتنا والنهوض بها، هو القذف بفكرة

الإعلام السلطوي فى مراحيض الفكر الرجعى والثقافة المكتبية، فلطالما أثبتت تلك النظرية سلبيتها وفشلها فى تحقيق فعل المثاقفة والخروج من الأزمات. نظرا لكفر المتلقي بمحطات أنظمة كفر بها المواطن المصري والعربي من مشرق الأرض إلى مغربها. فالإعلام السلطوي فى أبسط تعريف له: هو تلك الوسائل التي تنطق بلسان حال الحكومات بغض النظر عن صواب الرسالة أو خطئها. فمن علوج الصحاف وزير إعلام بغداد زمن الحرب إلى ركوب العقيد القذافي رحمه الله فى توك توك، وحتى الهجوم على الحرس الجمهوري المصري وأحاديث اعتصام ميدان رابعة العدوية، لم يلب الإعلام السلطوي رغبات عقل المتلقي العربي، الذي ذهب إلى القنوات الخاصة فى الوطن وخارجه، وراح بين التشتيت والتشكيك، لأنه لا يملك مقدار خردلة من ثقة فى إعلامه الوطني. ذلك الإعلام الذي ترك المحطات الغربية تزور الحقائق كيفما شاءت، كي تقنع الناخب الغربي، بأن الملايين التي خرجت فى يونيو من هذا العام "2013" تطالب برحيل رئيس مصر محمد مرسي، على أنها ملايين تؤيد وتدعم المعزول شعبيا، كمحطات السي إن إن. وفرانس 24 والجزيرة وغيرهم من المحطات التخابرية، ووقف الإعلام التجاري المصري والسلطوي عاجزين أمام هذه الممارسات المقلوبة، ولم يسعهم إلا سباب تلك المحطات والصراخ كالعجائز دون وجود حلول جذرية لمواجهة أزمة كادت أن تعصف بمصر وكيانها وتدخلها فى حرب أهلية، إذا ما استطاعت المحطات المخابراتية كسب عطف وتأييد الناخبين الغربيين، كمقدمة لإتخاذ قرار من الأمم المتحدة

بالتدخل العسكري فى مصر. فهذا العجز الإعلامي إن دل على شئ، فلا يدل إلا شلل تام فى إدارة المنظومة الإعلامية المصرية والعربية فى مواجهة المنظومة الغربية المنظمة والمقنعة لشعوبها. فلا أمل لنا إلا بالسرعة الفائقة فى تطبيق نظام إعلام المسئولية الاجتماعية على الفور، وإصدار ميثاق شرف إعلامي ممنهج من قبل خبراء حقيقيين، وليس منظرين فضائيين، لا يجيدون إلا الصراخ عبر الشاشات، وإعادة النظر فى تعريف الإعلام العالمي من جديد وعدم الانجراف إلى مفاهيم الغربيين أمثال أوتوجروت وغيره من أصحاب المفاهيم العقيمة والبائدة والتي لا تصلح لموضوع تعبير فى المرحلة الثانوية. فماسبيروا الذي يعتبر أهم وأقدم تليفزيون عربي، أصبح مثل أرملة تبكي فقيدها وتتسول على أبواب الحاجة، فتارة فى حضن الإخوان وتارة فى حضن الليبراليين وثالثة فى حضن السخرية بتلك القناة التي أطلقوها تحت مسمى صوت الشعب ولا يتابعها من الشعب سوى العاملين بها على أعلى تقدير. ملايين ومليارات الجنيهات يتم إنفاقها عبثا دون دراسات علمية مسبقة، وقد ظهر الفشل جليا وقت الأزمة فى مواجهة الغربيين. كان الأولى من البكاء والصراخ والعويل، أن يطلق ماسبيرو مع بدايات الثورة المصرية قناة متعددة اللغات على القمر الأوربي، ومدعومة من الخارجية المصرية، تحسبا لتلك الأزمات. لكننا لن نبكي اللبن المسكوب وقد سبق السيف العزل، وما فكر منظروا الفضائيات ولا الخبراء الوهميين الذين يجيدون الفتوى والصراخ والتوك شو، أن يشتروا مساحات ممولة على الشاشات الأكثر مشاهدة فى أوروبا وأمريكا

لعرض حقائق الوضع فى مصر. ما فكر أحدهم فى عمل حملة منظمة يشارك فيها الشباب المصري المغترب فى شكل رسائل فيديو تجوب الشوارع والحدائق والشواطئ لعرض الحقائق، تلك العروض التي يجب أن تكون مدروسة بعناية وخارجة من عقول حقيقية وليست عقول فضائية. متى سنرحم أوطاننا من هذا الإعلام الذي سيحيلنا حتما للسقوط. إذا لم نتخذ إجراءات جادة لتدارك أزمات الإعلام المصري والعربي!

بعد هذا الطرح السوداوي لمآسي الإعلام المصري والعربي، هل من بصيص نور يحمله الفكر فى طريق إنقاذ الأوطان من هذا العبث والعشوائية والإرتجال؟

إن توصيف الحالة من خلال الإصطلاحات والإجراءات وحدها، دون وضع رؤية لحل تلك المشكلات، يعتبر عبثا جديدا وارتجالا ونواحا لا يليق بما تستحقه أوطاننا من جهد مبذول لتدارك مثل تلك الكوارث. فالبديل عندي وكما طرحته من قبل وسعيت لنشره مرات متعددة وحملته على قلبي سعيا لأن يستجيب أحدهم لتلك الرؤية التى يمكن أن تكون مكتملة أو ناقصة. فقط أردت فتح باب النقاش حول ضرورة التحول إلى إعلام المسئولية الإجتماعية. وقد نجحت نوعا ما،فى فتح باب النقاش الذي أغلقه المنتفعون على رقبتي وراح بعضهم يروج لما طرحته من عشرات الدراسات ومنذ ما يقارب عقد ونصف من الزمان على أنها من صنع عبقريته المتفردة فخرج المولود مشوها، وقد كان هذا الطرح منذ سنوات متقدمة، ولم يتم مناقشته للأسف إلا مؤخرا، حينما ضاقت الأزمة وتجاوزت حدود

العقل. لذا أقدم تلك الرؤية من جديد علها تفيد فى تدارك الأزمة الإعلامية وتصبح مصدرا لبصيص من نور يشهده المتلقي والمشهد الإعلامي، حتى وإن كانت رؤيتي قاصرة ولا أجزم بصحتها، فقد طرحتها فى محاولة لفتح باب النقد أو الاستكمال، أو خروج أحد الباحثين بما هو أفضل